الْقَسَـمُ فِي الْقُـرْآنِ الْكَـرِيمِ
(دِرَاسَةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ وَصْفِيَّةٌ)

د. عدلي رجب أحمد قشقش
كليَّة التربية/ جامعة طبرق/ ليبيا
adlifree2018@gmail.com

المُلخَّص:

إنَّ القرآن الكريم كتاب الله أنزله تعالى تبياناً لكل شيء، أُنزل بلغة العرب، ومن أساليب توكيد الكلام عند العرب أن يؤَكَّد بالقسم ، إذ أنَّ القسم يُبرِز المعاني والمقاصد على نحْوٍ يُريده المقسم، وعند قصد تثبيت الكلام فإنَّ القسم من الطرق الأكثر لفتاً للانتباه، والأكثر إيصالاً للمقصود، وشدَّاً للسَّمع، وكما أنَّ للعرب طُرقا عديدة لتوكيد الكلام، فكذلك هو أسلوب القسم الذي ورد في القرآن الكريم، على ما سنُبيِّنُه في هذا البحث؛ لأنَّه نزل بلغة العرب كما قدَّمنا، فحريٌّ أن يكون على أساليب العرب، وسنتعرَّض في هذا البحث لهذا الجانب بشيء من التفصيل مستدلِّين بآيات الذِّكر الحكيم.

الكلمات المفتاحية: القسم بالمخلوقات، القسم المنفي، أركان القسم، الغرض من القسم.

Oath in the holy Quran
(analytical and descriptive study)

Dr. Adli Rajab Ahmed Qishqish
adlifree2018@gmail.com

Abstract:

The holy Quran is the book of Allah to whom be ascribed all perfection and Majesty revealed by Allah as clarification to explain everything in Araba's Language and the oath is considered method to confirm the speech for all Arabs whereas the oath emerges the meanings and the destinations as The swearer wants on confirmation the speech so the oath is considered as One of the methods that is supposed to pay attention , the most purposeful And attentive to hearing also the Arabs have various Methods to confirm

The speech and the oath style that is mentioned and we will show it in this Research Because the holy Quran revealed in the Arab's language there for It depends on Arab's styles .

Finally : we will show this aspect in details inferring Verses of the holy Quran

The Key words :

1 Truth of the oath in the holy Quran and Its types.

2- honor of the creator in swearing of his creatures .

3- purpose of the oath appears as oath of exile .

المقدِّمـة:

لابدَّ للباحث في مواضيع علوم القرآن الكريم من اتباع منهجيَّة دقيقة في بحثه، واضحة الخطوات، بيِّنة المعالم، مُنظمَّة الأفكار، كيف لا! وهو يبحث في كلام الخلَّاق العليم ، ومن مواضيع علوم القرآن التي نهدف للبحث فيها، مبحث القَسَم القرآني، حيث نعرض أهم المسائل المتعلِّقة بهذا الموضوع.

أهميَّة البحث:

تبرز أهميَّة الموضوعي كونه تكرَّر في مواضِع عديدة في القرآن الكريم، بأساليب متعدِّدة، وبأشكال لغويَّة مختلفة؛ ولذلك يُستحب أن يعلم ويفهم القارئ لكتاب الله والسامع له قدر استطاعته مواضيع علوم القرآن، التي منها هذا المبحث، وبعد ذلك العمل بما علِم وفهم، ولا نقصد الجانب اللُّغوي فحسب، بل الجانب الفقهي وجانب العقيدة أيضاً، ولضيق المقام في هذا البحث لم يسعنا البحث في كل الجوانب المذكورة.

مشكلة البحث:

الغموض الأساسي الذي أحاول البحث عن إجابات له في هذا البحث هو فهم حقيقة القَسَم القرآني، وأنواعه، وأساليبه، وأقصد بحقيقة القسم، أي: بيان المراد الفعلي من القسم المبدوء بأداة النفي (لا)؛ ولذلك جعلته آخر البحث، إذ لابدَّ من التسلسل للوصول إلى هذه المسألة، ويمكن تلخيص صعوبات البحث فيما يأتي:

1. قلَّة المصادر التي تعرَّضت لهذا الموضوع بالبحث المستقل، إذ أنَّ أغلبها يذكرها ضِمن مواضيع أخرى، أو أنَّه إذا ذُكِر مستقلاً ذُكِر اختصاراً وقلَّما لقِيتُ ترتيباً بحثيَّاً مستقِلاً متسلسلاً لهذا الموضوع.

2. أغلب المراجع المتأخرة والأبحاث العلميَّة ساعدتني كثيراً في بلورة فكرة البحث، وترتيبه، وسهَّلت عليَّ الوصول إلى المصادر المتعلِّقة بموضوعي، غير أنَّني وجدتها تنقل بالكيفيَّة نفسها وبالترتيب نفسه في المسائل، وهو ما جعلني حَذِراً في تجنُّب تكرار هذا الأمر، ولم يكن من السهل تجنُّب الوقوع فيه كُلِّيا .

أهداف البحث:

الهدف الأساسي من هذا البحث هو تيسير فهم موضوع القسم القرآني، وعرضه بشكل منهجي مُيسَّر؛ ليستفيد منه المتخصِّص والقارئ، وأهدُف أيضاً إلى أن يكون هذا البحث تمهيداً لبحوث أخرى في الموضوع ذاته بمسائل أخرى، لعلَّنا نذكرُها في التوصيات في خاتمة البحث إن شاء الله تعالى.

حدود البحث:

سأبحث إن شاء الله تعالى في مفهوم القسم، وأركانه، وفائدة القسم القرآني، وأنواعه، والعلاقة بين المِقسم به والمِقسم عليه، وبعض المسائل اليسرة الفرعيَّة المتعلِّقة بجملة القسم، مثل: حذف جواب القسم في القرآن الكريم، وتعدُّد المِقسم به، وقد احتوى هذا البحث على مُلخَّص، ومقدِّمة، ومبحثين، لكل مبحث مطالب تتعرَّض بالشرح لمواضيع المبحث الأساسي، وقسَّمتُها على النحو الآتي:

المبحث الأول: مفهوم القسم وأركانه

المطلب الأول: تعريف القسم.

المطلب الثاني: أركان القسم وفائدته.

المبحث الثاني: أنواع القسم القرآني وأساليبه والعلاقة بين المِقسم به والمِقسم عليه.

المطلب الأول: أنواع القسم القرآني وأساليبه.

المطلب الثاني: العلاقة بين المُقسَم به والمُقسَم عليه في القرآن الكريم.

المطلب الثالث: القسم المبدوء بأداة نفي.

الخاتمة: وتحتوي على أهم نتائج البحث وتوصيات الباحث.

فهرس التوثيق.

فهرس المصادر والمراجع.

فهرس المحتويات.

المبحث الأول: مفهوم القسم وأركانه:

المطلب الأول: تعريف القسم:

أولاً: القسم لغةً:

القسم: مصدر له عدَّة معان منها: قسْم الشيء: قسمت الشيء فانقسم، والموضع مقسم مثل مجلس، ومِقسم: اسم رجل، قال الشاعر القلاخ بن حزن :

أنا القلاخ في بغائي مقسما *** أقسمت لا أسأم حتى تسأما

فهو اسم غلام له كان قد فرَّ منه.

والقِسم بالكسر الحظ والنصيب من الخير، مثل طحنت طحناً والطحن الدقيق، يقال: هو يَقْسِمُ أمره قَسْماً، أي يقدِّره وينظر فيه كيف يفعل.

وأقْسَمْتُ: حلفتُ، وأصله من القَسامَةِ، وهي الأيْمانُ تُقْسَمُ على الأولياء في الدم .

والقسَم بتحريك السين : اليمين، وكذلك المقسم .

المقسم أيضاً : موضعُ القَسَم، يقال : فتُجْمَعُ أيْمُنٌ مِنَّا ومنكم بمُقْسَمَةٍ تَمورُ بها الدماء يعني بمكة [1] .

ثانياً : القسم اصطلاحاً:

قال الراغب الأصفهاني:

"إنَّ القَسَمَ بِمعنى اليَمينِ ، أَصلُهُ مِن القَسامَةِ، وهِيَ أَيمانٌ تُقسَمُ علَى أَولِياءِ القَتِيلِ إذا ادَّعُوا علَى رَجُلٍ أنَّهُ قَتَلَ صاحِبَهُم، ومَعَهُم دَلِيلٌ دُونَ البَيِّنة، فيَحلِفُونَ خَمسِينَ يَميناً تُقسَمُ علَيهِم، ثمَّ صارَ اسمٌ لِكلِّ حَلفٍ، فَكأَنَّهُ أي: القَسَمُ كانَ في الأَصلِ تَقسيمَ أيمانٍ، ثمَّ صارَ يُستَعمَلُ في نَفسِ الحَلْفِ والأيمانِ" [2] .

وعليه يمكن القول: بأنَّ القسم هُوَ طَرِيقٌ مِن طُرقِ تَوكِيدِ الكَلامِ وإبرازُ معانيهِ ومقاصِدِهِ علَى النَّحو الَّذِي يُرِيدُهُ المتكلِّمُ ويقصده، حيث يُؤتَى بِهِ لغرض معيَّن أو أكثر مثل دفعِ إنكارِ المنكِرِينَ، أو إزالةِ شَكِّ الشَّاكِينَ، وهُوَ مِنَ المؤَكِّداتِ التي تُمكِّنُ الشَّيءَ المراد تأكيده في نَفسِ السَّامِعِ وتُقَوِّيهِ، ولِتَطمَئِنَ نفسه إلَى الخَبر.

المطلب الثاني: أركان القسم وفائدته

أولاً: أركان القسم:

أ. المقسِم .

ب. أداة القسم.

جـ. المقسم به.

د. المقسم عليه.

ففي قوله تعالى: ﴿**وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ**﴾ (النحل، 38).

تجتمع الأركان الأربعة.

فقوله تعالى: ﴿**وَأَقْسَمُوا**﴾ فهو الركن الأوّل (المقسِم).

والباء في لفظ الجلالة ﴿**بِاللَّهِ**﴾ هي الركن الثالث (أداة القسم).

ولفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿**بِاللَّهِ**﴾ هو الركن الثالث (المقسَم به).

وقوله تعالى : ﴿**لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ**﴾ فهو الركن الثالث (المقسَم عليه).

وكثيراً ما يحذف الفعل؛ لكثرة تردُّد القسم في كلامهم ويكتفى بالواو أو التَّاء في أسماء اللّه.

ثانياً: فائدة القسم:

"فإنَّ قيل ما معنى القسم منه سبحانه؟ فإنَّه إن كان لأجل المؤمن فالمؤمن يصدِّق مجرد الأخبار، وإن كان لأجل الكافر فلا يفيده!

فالجواب: قال الأستاذ أبو القاسم القشيري: إنَّ الله ذكر القسم لكمال الحجة وتأكيدها وذلك أنَّ الحكم يفصل باثنين: إمَّا بالشهادة وإمَّا بالقسم، فذكر تعالى النوعين حتى يبقى لهم حجة"[3].

"وذلك أنَّ الحُكم يُفْصَلُ بِاثْنَيْنِ: إمَّا بالشهادة وإمَّا بالقسم، فذكر تعالى في كتابه النوعين؛ حَتَّى لَا يَبْقَى لهم حجة فقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ (آل عمران، 18)، وَقَالَ تعالى: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ (يونس، 53)، وعن بعض الأعراب أنَّه لما سمِع قَوْلَهُ تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (22) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ (الذاريات، 22، 23)، صرخ وقال : مَنْ ذَا الَّذِي أَغْضَبَ الْجَلِيلَ حَتَّى أَلْجَأَهُ إِلَى الْيَمِينِ"[4].

فإن قيل: ما الحكمة في القسم من الله تعالى ، وكان القوم في ذلك الزمان على صنفين: مصدِّق، ومكذب، فالمصدِّق يصدق بغير قسم، والمكذب لا يصدق مع القسم ؟

قيل: القرآن نزل بلغة العرب، والعرب إذا أراد بعضهم أن يؤكِّد كلامه أقسم على كلامه، والله تعالى أراد أن يؤكِّد عليهم الحجة[5].

المبحث الثاني: أنواع القسم القرآني وأساليبه والعلاقة بين المقسم به والمقسم عليه

المطلب الأول: أنواع القسم القرآني وأساليبه:

أولاً: أنواع القسم القرآني:

1. قسَم يُراد به التقديس.
2. قسَم يُراد به تشريف وإعزاز للمقسم به.
3. القسم الاستدلالي.

1. القسم التقديسي: وهو عندنا أن يُقسِم الإنسان بالله تعالى ، أو بصفة من صفاته، فيقول: أقسم بالله، أو بعزته، أو بجلاله، على أمر مُعين، وهو القسم الشرعي، الذي يحنث الإنسان على نقضه بعد تأكيده. وقد أقسم الله عزَّ وجلَّ بالنبي صلَّى الله عليه وسلم، في قوله تعالى:

﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾ (الحجر ، 72)؛ لتعرف الناس عظمته عند الله تعالى ، ومكانته لديه[6].

2. القسم التشريفي: قد تحمل العزة والرِّفعة في نفس الإنسان إلى أن يحلف بقوله: وحياتي، وعمري مؤكداً أمراً أو نافياً آخر، وقد يحلف بغيره للدَّافع نفسه، ومع أنَّها تشعر بتعظيم المقسم به، إلَّا أنَّها لا تصل إلى حد التقديس. القسم الاستدلالي: روي أنَّ هجرس عندما همَّ بقتل جساساً قاتل أبيه، قال: (وفرسي وأذنيه، ورمحي ونصليه، وسيفي وغراريه، لا يترك الرجل قاتل أبيه وهو ينظر إليه)[7]، والحقيقة أنَّه لم يرد ما حلَف به، وإن كانت عظيمة عنده، عزيزة عليه، ولكنَّه أراد أن يُوصل فكرة وتقدير الكلام: أنَّه لا عذر لي في أن أترك قاتل أبي حياً أنظر إليه، وأنا تام الأهبة، قادر على الضرب والطعن والثأر، فوضع الدليل في صورة القسم التي تفيد التأكيد.

وقد قيل إنَّ القَسَم بالشيء على وجهين: إمَّا لفضيلة أو لمنفعة، فالفضيلة كقوله **تعالى**: ﴿**وَطُورِ سِينِينَ** (2) **وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ** ﴾ (التين: 2، 3)، فقد أقسم سبحانه بالبلد الأمين، وهو مكة؛ تبياناً لفضلها ومكانتها والمنفعة، والمنفعة قوله **تعالى**: ﴿**والتين والزيتون**﴾ (التين، 1)، أقسم سبحانه بهذين المطعومَيْن؛ لبيان منفعتهما وفائدتهما [8].

ثانياً: أسلوب القسم القرآني:

النَّاظر في أساليب القسم في القرآن الكريم يتضح له أنَّ أساليبه لا تخرج عن ثلاثة أنواع:

أولاً: القسم من جهة المقسَم به وهو على ضربين:

1. قَسَم بالله تعالى ، وقد أقسم سبحانه بذاته في ثمانية مواضع في القرآن الكريم، وهي:

قوله تعالى: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**﴾ (النساء، 65).

وقوله تعالى: ﴿**قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ**﴾ (**يونس، 53**) .

وقوله تعالى: ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ** (92) ﴾ (**الحجر ، 92**) .

وقوله تعالى: ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ** ﴾ (**مريم ، 68**) .

وقوله تعالى : ﴿**قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ**﴾ (**سبأ ، 3**).

وقوله تعالى : ﴿ **فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ** ﴾ (**الذاريات، 23**).

وقوله تعالى : ﴿ **فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ** ﴾ (**المعارج ، 40**).

وقوله تعالى: ﴿**قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ**﴾ (**التغابن، 7**) .

2. قَسَم الله بمخلوقاته ، وهذا كثير في القرآن الكريم ، فتارة يقسم بمخلوقاته نحو قوله وقوله تعالى:

﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى** (1)﴾ (**النجم ، 1**).

وقوله تعالى: ﴿**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا** (1) **وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا** (2)﴾ (الشمس: 1 ، 2) .

وقوله تعالى: ﴿ **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ** (1)﴾ (البروج ، 1) .

وتارة يقسم بمخلوقاته الأرضية ، كقوله وقوله تعالى:

﴿**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ** (1) **وَطُورِ سِينِينَ** (2)﴾ (التين: 1 ، 2).

وقوله تعالى: ﴿**وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا** (3) **وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا** (4)﴾ (الشمس: 3، 4) .

وتارة يقسم سبحانه بنبيه صلى الله عليه وسلم، كما في قوله تعالى:

﴿ **لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (72)** ﴾ (الحجر، 72).

وتارة يقسم سبحانه بالقرآن الكريم، كقوله : ﴿**يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2)**﴾ (يس : 1 ، 2) .

وقوله تعالى : ﴿**ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (1)**﴾ (ص ، **1**) .

وقوله تعالى : ﴿**ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1)**﴾ (ق، **1**).

ثانياً : باعتبار المقسم عليه: وهو أنواع:

منها القسم على التوحيد، من ذلك قوله وقوله تعالى:

﴿**فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (3) إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ (4)**﴾ (الصافات: 3، 4).

ومنها القسم على أن القرآن حق مثل قوله وقوله تعالى:

﴿**وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (76) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (77)**﴾ (الواقعة: 76، 77) .

ومنها القسم على أن الرسول –صلى الله عليه وسلم– حق ، من ذلك قوله تعالى: ﴿ **يس (1) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (3)**﴾ (يس : 1 ، 2 ، 3) .

ومنها القسم على أن الجزاء حق، من ذلك قوله : ﴿**وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (1)**﴾ (الذاريات ، 1) وقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (6)**﴾ (الذاريات ، 6) .

ومنها القسم على حال الإنسان، نحو قوله تعالى: ﴿ **وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى (1) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى (2) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (3) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى (4)**﴾ (الليل : 1 ... 4)

ثالثًا : باعتبار المُظهر والمُضمر ، وهو على قسمين:

1. الظاهر: وهو ما يذكر فيه المقْسَم به، مثاله وقوله تعالى:

﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (الذاريات ، 23).

وقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (92)﴾ (الحجر ، 92) .

2. المضمر: ويكون في هذا النوع المقسم به مضمراً ومقدراً، مثاله قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾(آل عمران، 186)، ف (اللام) هنا: هي لام القسم دلت على المقسم به، والتقدير: والله لتبلون، ومن أمثلته أيضاً قوله قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ (مريم ، 71)، والتقدير: والله إنكم لواردو النار.

مسألة حول صيغة القسم وجوابه:

الصيغة الأصليَّة لأسلوب القسم هي أن يؤتى بالفعل أُقسم أو أحلف متعدياً بـ (الباء) إلى المقسَم به ، ثم يأتي المقسَم عليه وهو المسمَّى بجواب القَسَم ، كقوله تعالى:

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ (الأنعام ، 109).

وعلى هذا الرأي، فإنَّ أسلوب القَسَم يتكوَّن من ثلاثة عناصر رئيسة: (فعل القَسَم، والمقسم به، وجواب القَسَم).

وقد تزاد ألفاظ في القَسَم؛ للمبالغة في التوكيد، من ذلك زيادة لفظ (إي)، بمعنى: نعم، كما في وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي﴾ يونس، 52)، وقد يُنقص منه؛ للاختصار وللعلم بالمحذوف، فيحذف فعل القَسَم، ويحذف حرف الجر، ويكون الجواب مذكوراً، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب ، 21)، والتقدير: والله لقد كان.

وجواب القَسَم قد يُذكر، وقد يُحذف؛ للعلم به، أو للدلالة عليه، فمن أمثلة ذكره قوله تعالى:

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) ﴾ (الشمس، 1) ، **إلى قوله** □ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9)﴾ (الشمس: 9).

وقد قال الزركشي: إنَّ ذِكر جواب القَسَم هو الأغلب في القرآن الكريم، ومن أمثلة هذا الحذف قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1)﴾ (القيامة، 1).

وقوله تعالى قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (3)﴾ (القيامة، 3)، والتقدير: لتبعثن ولتحاسبن، قال ابن الأثير: وقد ورد هذا الضرب في القرآن كثيراً.

المطلب الثاني: العلاقة بين المُقسَم به والمُقسَم عليه

"الواقع أن نُبين كل قسم ومقسم عليه مناسبة ارتباط في الجملة غالباً، والله تعالى يقسم بما شاء على ما شاء؛ لأنَّ المقسم به من مخلوقاته، فاختيار ما يقسم به هنا أو هناك غالباً يكون لنوع مناسبة، ولو تأملناه هنا، لوجدنا المقسم عليه هو يوم القيامة، وهم مكذبون به فأقسم لهم بما فيه إثبات القدرة عليه، فالرياح عرفاً تأتي بالسحاب تنشره ثم يأتي المطر، ويحيي الله الأرض بعد موتها، وهذا من أدلَّة القدرة على البعث، والعاصفات منها بشدة، وقد تقتلع الأشجار وتهدم البيوت ممَّا لا طاقة لهم بها ولا قدرة لهم عليها، وما فيها من الدلالة على الإهلاك والتدمير، وكلاهما دال على القدرة على البعث"[9].

ووجه المنسابة بين المقسَم به والمقسَم عليه، يُظهِر التناسب بين الآيات والسور، حيث ضرب من الإعجاز البياني للقرآن الكريم، فهو كتاب محكَم النَّسْجِ، لا تجد فيه خللًا بين كلماته، ولا تنافر بين حروفه، ولا تناقض في معانيه ولا في مراميه.

ومع أنَّه نزل منجَّمًا في نحو ثلاث وعشرين سنة، فانظر كيف رتَّبه الله ترتيبًا فريدًا غاية في الحسن والجمال، والجلال والكمال، بهر العقول ببراعة نظمه، وسلاسة أسلوبه، ودقة تصويره، وروعة تعبيره، وعذوبة بيانه.

فإذا تأمَّلنا مثلًا في آيات القسَم وجدنا الصلة جدَّ قوية بين المقسَم به والمقسَم عليه، وأدركنا أنَّ بينهما تناسبًا وثيقًا ...

فقد أقسم الله مثلًا بطوائف من الملائكة على وحدانيته وربوبيته؛ لنفي ما زعمه المشركون من وجود صلة نسبية بينه وبينهم، فقال تعالى:

﴿**وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (1) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (2) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (3)**﴾ (الصافات : 1 ، 2 ، 3).

فقد زعموا أنَّ الملائكة بنات الله، وجعلوا بينه وبين الجِنَّة نسبًا، فأقسم بهم؛ لبيان وظائفهم، وتحديد مكانتهم، وإثبات كماله في ذاته، وبيان أنَّه الواحد الأحد، رب السماوات والأرض وما بينهما، فلو جيء بمقسَم به آخر غير الملائكة، لاختلَّ نظم الكلام ونسق المعاني، ولذهب وجه فريد من وجوه الإعجاز البياني [10] .

ومن ذلك قوله وقوله تعالى: ﴿**وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4)**﴾ (الضحى : 1 ... 4) .

أقسم تعالى على إنعامه على رسوله وإكرامه له، وذلك متضمِّن لتصديقه له، فهو قسم على صحة نبوَّته وعلى جزائه في الآخرة، وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته، وتأمل مطابقة هذا القسم: وهو نور الضحى الذي

يوافي بعد ظلام الليل، المقسم عليه: وهو الوحي الذي واتاه بعد احتباسه عنه حتى قال أعداؤه: ودع محمدا ربه، فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه[11].

وقوله تعالى: ﴿**وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (4)**﴾ (**الفجر: 1 ... 4**)، هذا القسم العظيم، فارتباطه بما في آخر السورة، فهو أنَّ المقسم به هنا خمس مسميات، والذي في آخر السورة أيضاً خمس مسمَّيات : ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (22) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (23)﴾ (الفجر : 21 ... 23)، فهي صور اشتملت على اليوم الآخر كله من أول النفخ في الصور، ودك الأرض إلى نهاية الحساب، وتذكَّر كل إنسان ماله وما عليه، تقابل ما اشتمل عليه القسم المتقدِّم من أمور الدنيا في بداية السورة[12].

المطلب الثالث: القسم المبدوء بأداة النفي (لا)

ورد المقسم به مسبوقا بأداة النفي (لا) في ثمانية مواضع من القرآن الكريم، وهي:

أ. مقسم به مسبوق بأداة النفي (لا) مقترنة بالفاء، وذلك في ستة مواضع من القرآن الكريم، وهي:

1. قوله تعالى: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ**﴾ (النساء ، 65).
2. قوله تعالى: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (38) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (39)**﴾ (الحاقة : 38 ، 39) .
3. قوله تعالى: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ** ﴾ (المعارج ، 40) .
4. قوله تعالى: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ** ﴾ (الواقعة ، 75) .
5. قوله تعالى: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (15) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (16)**﴾ (التكوير : 15 ، 16) .
6. . قوله تعالى : ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ**﴾ (الانشقاق ، 16) .

ب. مقسم به مسبوق بأداة النفي غير مقترنة بالفاء، وذلك في موضعين:

1. قوله تعالى : ﴿**لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (1) وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (2)**﴾ (القيامة : 1 ، 2) .
2. قوله تعالى : ﴿**لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ** ﴾ (البلد ، 1) .

وقد تكلَّم العلماء في هذا النوع من القسم ومُجمل أقوالهم تتلخَّص فيما يأتي :

1. **أنَّ (لا) لنفي القسم.**

فكأنَّ الله تعالى يريد أن يقول: لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب، فهو أعظم وأجل من أن يقسم عليه بهذه الأشياء، ويكون الغرض من هذا الكلام على هذا الرأي تعظيم المقسم عليه، وتفخيم شأنه، أو إثبات أنَّ المقسم عليه، أظهر وأجل من أن يقسم عليه بمثل هذه الأشياء، فإنَّ إثباته أظهر وأجل وأقوى من أن يحاول إثباته بمثل هذا القسم [13].

2. أنَّ (لا) صلة للتوكيد.

وعلى هذا إذا جاءت خلال السياق، كقوله تعالى:

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم﴾ (النساء، 65)، فهي صلة تُزاد لتوكيد القسم، مثلها في قوله تعالى: (لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله) (الحديد، 29)، لتأكيد وجوب العلم.

وإذا وقعت ابتداء كما في سورة القيامة، وسورة البلد، فهي للنفي؛ لأنَّ الصلة لا تكون في أول الكلام، فإنشاء القسم يتضمَّن الإخبار عن تعظيم المقسم به، فهو نفي لذلك الخبر الضمني على سبيل الكناية، والمراد: أنَّه لا يعظم بالقسم؛ لأنَّه في نفسه عظيم، أقسم به أولاً، ويترقَّى من هذا التعظيم إلى تأكيد المقسم عليه، إذ المبالغة في تعظيم المقسم به، تتضمَّن المبالغة في تعظيم المقسم عليه. وبه قال الزمخشري [14].

3. أنَّ (لا) لنفي ما ينبي عنه القسم:

من إعظام المقسم به وتفخيمه، فإنَّ معنى لا أقسم بكذا والتقدير:

لا أعظمه بإقسامي حق إعظامه، فإنَّه حقيق بأكثر من ذلك، وهذا الرأي يدور على أنَّ (لا) للنفي، وهذا الأسلوب يتضمَّن التعظيم.

السؤال هنا: هل التعظيم منصب على المقسم به كما قاله ابن السعود [15]، على معنى: لا أعظمه بإقسامي به حق إعظامه، فإنَّه حقيق بأكثر من ذلك، أم أنَّ التعظيم منصب على المقسم عليه، على معنى: لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات المطلوب، فإنَّه أعظم من أن يقسم عليه بهذه الأشياء [16]، أم هو منصب على المقسم به والمقسم عليه، إذ المبالغة في تعظيم المقسم به تتضمَّن المبالغة في تعظيم المقسم عليه [17]، ولكن هذا الرأي يرده قوله تعالى: ﴿وإنَّه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ (الواقعة، 76)، فهذا دليل على أنَّ هنا قسماً مثبتاً، وأنَّ الكلام

إثبات قسم، لا نفي قسم، وليس بعد بيان الله بيان، وبما أنَّ الأسلوب في الآيات البقية الأخرى مثلها في اللفظ، تكون مثلها في الحكم.

4. **أنَّ صيغة (لا أقسم) عبارة من عبارات القسم:**

أنَّ (لا) صلة، زائدة، والمعنى: أقسم، وممَّن قال بذلك: ابن خالويه [18]، وأبو علي الفارسي [19]، والزمخشري[20].

وقال الزمخشري أيضاً: "إدخال (لا) النافية على فعل القسم مستفيض في كلامهم، وأشعارهم، قال امرؤ القيس:

لا وأبيك ابنة العامري *** لا يدعي القوم أني أفر [21]،

وفائدتها توكيد القسم .

"واعترضوا عليه بأنَّها إنما تزاد في وسط الكلام لا في أوله، وأجابوا بأنَّ القرآن في حكم سورة واحدة، متصل بعضه ببعض، والاعتراض صحيح؛ لأنَّها لم تقع مزيده إلَّا في وسط الكلام، ولكن الجواب غير سديد، ألا ترى إلى امرئ القيس كيف زادها في مستهل قصيدته"[22]، وقيل: إنَّها زيدت توطئة وتمهيداً لنفي الجواب، كما في قوله تعالى: ﴿لا أقسم بيوم القيامة﴾، فالمعنى: لا، أقسم بيوم القيامة، لا يتركون سدى [23] .

مسألة: حذف جواب القسم في القرآن الكريم.

قد يُحذف جواب القسم في القرآن الكريم؛ لأسباب كثيرة، وذلك وارد في مواضع مُتعددة، منها:

1. قوله تعالى: ﴿**وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا** (1) **وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا** (2) **وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا** (3) **فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا** (4) **فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا** (5) **يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ** (6)﴾ (النازعات : 1 ... 6)؛ لعلم السامع المراد منه، وتقديره: لتبعثن ولتحاسبن بدليل إنكارهم للبعث في قول المولى تعالى: حكاية على حالهم: ﴿**أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ** ﴾ (النازعات ، 10) [24].
2. وفي قوله تعالى: ﴿**ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ** ﴾ (ص، 1)، قيل: الجواب محذوف أي والقرآن المجيد ما الأمر كما يقول هؤلاء أو الحق ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، والغرض من حذف جواب القسم هنا الإعراض عنه إلى ما هو أجدر بالذكر وهو صفة الذين كفروا وكذبوا القرآن عناداً أو شقاقاً منهم [25].

3. وقال الفراء: في قوله تعالى: ﴿**إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ** ﴾ (الانشقاق، 1)، جوابه محذوف أي فيومئذ يلاقي حسابه [26].

مسألة: قد يتعدَّد المقسم به والمقسم عليه في القرآن الكريم، وقد يتعدَّد المقسم به وينفرد المقسم عليه، وقد ينفرد المقسم به ويتعدَّد المقسم عليه، وفي الآيات الآتية عرضاً لهذا التعدُّد على سبيل المثال لا الحصر:

1. تعدُّد المُقسم به والمُقسم عليه:

قوله تعالى: ﴿**وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (1) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (2) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (3) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (4) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (5) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (6)**﴾ (الذاريات : 1 ... 6).

2. تعدُّد المُقسم به وتفرُّد المُقسم عليه:

قوله تعالى: ﴿**وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا (1) فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا (2) وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا (3) فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا (4) فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (5) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (6) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ (7)**﴾ (المرسلات : 1 ... 7) .

3. تفرُّد المُقسم به وتعدُّد المُقسم عليه:

قوله تعالى: ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (1) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى (2) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (5)**﴾ (النجم : 1 .... 5).

الخـاتمة:

قد تتعدُّد النتائج التي يخرج الباحث في موضوع القسم في القرآن الكريم، ولا أقصد هنا التعدُّد الكمِّي فحسب، إنَّما التعدُّد في اتجاهات عديدة، نحْويَّاً، أو بلاغيَّاً، أو فقهيَّاً، أو عقائديَّاً، وقد خلُصْت إلى نتائج في هذا البحث أسردها في الآتي:

1. القسم أسلوب يُراد به تأكيد الكلام وتثبيت المعنى في ذهن المتلقي؛ لأهميَّة المقسم عليه وللإلزام به.

2.المسلم مُصدِّق موقِن بما يُخبر الله تعالى به، من دون الحاجة إلى قسم، أمَّا غير المسلم فلا ينفعه قسم ولا تأكيد، والغاية من القسم هنا أسباباً عديدة منها: هي أنَّ القرآن الكريم نزل بما كان عليه حال العرب، إذ أن من طُرقهم في تثبيت الكلام وإيصال المعنى استخدام القسم.

3. المولى تعالى يُقسِم بما شاء من مخلوقاته؛ رِفعة لشأنه، وتحقيقاً لقدره.

4. المقسم به قد يكون ظاهراً وقد يكون مُضمراً على ما تقتضيه الحِكمة الإلهية في القسم، وذلك من الأساليب البلاغيَّة في القرآن الكريم، حيث تُبهر المتلقِّي وتجعله يُمعِنُ العقل والبصر؛ ليبحث في البلاغة القرآنيَّة ويتبحَّر في بحرها.

5. في أسلوب القسم القرآني يجد النَّاظر بتمعُّن علاقة بيِّنة بيت المقسم به والمقسم عليه، وقد ضربنا أمثلة يسيرة على ذلك؛ لضيق المقام على سرد كل آيات القسم ودراستها من هذا الجانب.

ومن التوصيات التي أُقدِّمها في هذا المقام ما يأتي:

1. دراسة موضوع العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه في القرآن الكريم دراسة مستقلة مستفيضة.

2. البحث في موضوع القسم القرآني من الجانب الفقهي وجانب العقيدة أيضاً.

الهوامش والتعليقات:

1. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: 393هـ) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار الناشر: دار العلم للملايين، بيروت الطبعة: الرابعة 1407 هـ ، 1987 م، باب الميم فصل القاف، 5 / 10 وما بعدها.
2. مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل (ت502هـ)، تحقيق صفوان عدنان داودي، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، طبعة سنة ، 1418هـ -1997م، ص670، وانظر السيوطي: الاتقان، ج2 / ص 170.
3. البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، (ت: 794هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، (1376 هـ - 1957 م)، نشر دار إحياء الكتب العربية، 3 / 41.
4. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (ت: 911 هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، نشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة، 1394 هـ ، 1974 م، 4 / 53.
5. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (ت: 671 هـ)، تحقيق: هشام سمير البخاري، نشر، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: (1423 هـ/ 2003 م)، 1 / 165.
6. أسلوب القسم في القرآن الكريم، سامي عطا الله حسن، نشر: مجلة الشريعة الإسلامية، سنة النشر: (2003 - 1424 هـ)، ص 14.
7. عبد الحميد الفراهي: إمعان في أقسام القرآن ص 35. وانظر القصة كاملة في الأغاني: لأبي الفرج الأصفهاني، 5/ ص61. ومحمد أحمد جاد المولى: أيام العرب في الجاهلية، وزملاؤه. ص 142-168.
8. الإتقان، للسيوطي، 4 / 55.
9. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، نشر: الفكر للطباعة والنشر، بيروت، (1415هـ ، 1995م)، 8 / 401 .
10. دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل، (ت، 1426 هـ)، نشر دار المنار، الطبعة الثانية (1419 هـ ، 1999 م)، 1 / 326.
11. الإتقان، للسيوطي ، 4 / 59.
12. أضواء البيان، للشنقيطي، 8 / 524.

13. الفخر الرازي: التفسير الكبير، الطبعة الثالثة، ج29/ ص 215.
14. الزمخشري : الكشاف: ج1 / ص538.
15. انظر أبو السعود بن محمد العمادي: تفسير أبي السعود (تفسير سورة الواقعة) ،ج5/ ص 267.
16. الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج29 / ص 215، (تفسير سورة القيامة).
17. انظر تعليق _ ابن المنير- على تفسير الزمخشري للآية / 65 في سورة النساء، ج1/ ص 538-539.
18. ابن خالويه (أبو عبد الله الحسين بن أحمد): إعراب ثلاثين سورة من القرآن، ص 87.
19. أبو علي الفارسي: المسائل المشكلة المعروفة بالبغداديات، ص 571.
20. الزمخشري : تفسير الكشاف ، ج4 / ص 58.
21. ديوان امرئ القيس، صنعه: حسن السندوبي، ص 52، والقوم هنا: بنو تميم. أفر: أنهزم. وقد جعل بعض الرواة هذا البيت أول القصيدة. وابنة العامري هي: هر بنت سلامة بن علند.
22. الزمخشري: تفسير الكشاف، (مرجع سابق) ج4/ ص189 (تفسير سورة القيامة). وانظر د. فضل حسن عباس: لطائف المنان، ص 243.
23. جمال الدين ابن هشام الأنصاري: مغني اللبيب، ص 328-329.
24. البرهان ، للزركشي ، 3 / 192.
25. التحرير والتنوير، لابن عاشور، نشر ، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس (1997 م)، 23 / 204
26. البرهان، للزركشي، 3 / 1.